**مدارس ومنـاهج مج : 04 .**

**أ: بن عاشور محسن 26 مــاي 2020**

( ملخص تابع لدرس : التاريخ مخبر العلوم الاجتماعية )

لو نعود إلى طريقتي الاتفاق في الحضور والاتفاق في الغياب اللتين تم التطرق لهما من طرف جون ستيوات **ميل** ( j.s MILL 1806-1873 ) ضمن ما وضعه من قواعد للتحقق من الفرضيات ، وهي الطريقة التي تقول : " إذا كانت حادثة ( الثورة أو انحراف الأحداث ) تحضر في أحوال مختلفة ، وكان حضورها مرفوقا دوما بعنصر **ثابت لا يغيب** ( ملازم له ) ، فإن هذا العنصر هو سبب تلك الحادثة " فلو أردنا مثلا القيام بدراسة حول الأسباب ، أو السبب الرئيسي ( أي المتغير المستقل ) للثورة ، أي ثورة ) نجد أن المؤرخين يقدموا لنا مجموعة كبيرة جدا من الثورات الشعبية أو الحروب عبر حقب زمنية متباعدة وعبر أمكنة مختلفة ، كما أن هؤلاء المؤرخين يبذلون جهدهم في شرح وتفسير أسباب تلك الحوادث ، كل حسب ما يعتقد أنه العامل الحقيقي أو السبب المباشر لوقوعها ، دون التقيد بمبدأ الشك والتمحيص ، وهم يعتقدون أن لكل حرب أو ثورة أسبابها الخاصة .. ولكن لو أن باحثا يطبق المنهج العلمي فيبدأ بتفحص مختلف الأسباب التي ذكرها المؤرخون منفصلة عن بعضها البعض ثم يقوم بجمعها وتنظيمها ويسلط عليها الملاحظة العقلية الموضوعية سيتبين له أن هناك سببا (علة) يلازم و**يـرافق** ويحـضر دائما في ظاهرة الثورة أو ظاهرة الحرب أو ظاهرة الانحراف لدى الأحداث والمراهقين وغيرها ، في الحضور وفي الغياب الذي يلازم الظاهرة موضوع الدراسة التي نتوصل إلى جمع معلومات كافية عنها ( وهي معلومات مبعثرة في كتب التاريخ وفي الآثار وفي كل ما تركه الأولون من بقايا مادية أو معنوية ، مقصودة أو غير مقصودة . فالباحث ، في هذه الحالة ، سينتبه إلى اكتشاف وتحديد السبب الأكثر تأثيرا في حدوث تلك الظاهرة ليجعل منه قانونا عاما إذا ظهر يمكن التنبؤ بحدوثها ، مثل الزيادة في عدد السكان والبطالة والحاجة الحيوية ( الحرب من أجل السيطرة على مصادر المياه أو من أجل البحث عن أسواق كمثال عن الحاجة الحيوية وصولا إلى ظاهرة الاستعمار) . تعني هذه الطريقة أنه : كلما يظهر المتغير " أ " يتبعه المتغير " ب " وكلما يغيب " أ " تغيب " ب " وبعد عدة تكرارات ، فإننا في هذه الحالة نقول أن الظاهرة " أ " هي سبب حدوث الظاهرة " ب "

إن المؤرخ يدرس وقائع وحوادث منفصلة في زمانها وفي مكانها دون أن يهتم بالعنصر المحرك الذي تشترك فيه هذه الحوادث، حتى وإن اجتهد في تفسير حدوثها فهو يعطيها أسبابا خاصا ومنفصلة عن الحوادث السابقة ، فهو يذكر سبب هذه الحرب المحصورة في الزمان والمكان ، بينما الباحث في العلم يقول : القانون الذي يتحكم في نشوب **الحرب** .

لذلك يقال أن التاريخ مخبر العلوم الاجتماعية ، وبذلك فإن المنهج التاريخي – الاسترادادي هو منهج علمي يقوم بالبحث عن الحقائق التاريخية بكل موضوعية ، من خلال تحليل وتركيب الأحداث والوقائع المتعلقة بموضوع بحثه والمدونة في مختلف الوثائق من أجل الوصول إلى المتغيرات المسببة فعلا في حدوثها واقتراحها كنظريات أو قوانين علمية ، فمثلا : أكد كارل ماركس أن سبب الصراع يكمن في ملكية وسائل الإنتاج ، من خلال دراسته للمراحل والنظم الاقتصادية التي مرت بها البشرية منذ عهد الشيوعية البدائية إلى غاية ظهور الرأسمالية الحديثة ، لذلك تنبأ بزوال الصراع إذا صارت ملكية وسائل الإنتاج موزعة **بالعدل** بين جميع أفراد المجتمع .؟

إن الباحث في العلوم الاجتماعية لا يصدق ، للوهلة الأولى ، كل ما يقرأه مما كتبه المؤرخون أو الناقلون للأخبار ، لذلك عليه أن يقارن بين مختلف ما وصل إليه من أخبار عن الموضوع الذي يدرسه ، ويبحث عما هو مشترك و**متكرر** بينها ، لأن ذاتية المؤرخ كثيرا ما تكون سببا في أن ينقل الخطأ على انه الصواب .
لقد نبه عبد الرحمن بن خلدون ( 1332 – 1604 م )* إلى مجموعة من الأخطاء التي يقع فيها الباحثون إن هم نقلوا ما يصل إلى علمهم من أخبار دون نقدها ودون أن يشكوا في صحتها إذ يقول " لما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه ، فمنها التشيعات للآراء والمذاهب .. فتقبل ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها .. فتقع في قبول الكذب .. وكذلك الثقة بالناقلين ، ومنها الذهول عن المقاصد ، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد مما عاين أو سمع وينقل الخبر فيقع في الكذب ومنها توهم الصدق .. ومنها الجهل بتطبيق الأحوال ( الأسباب المعقولة والمنطقية ) على الوقائع " (1)
هذا ما جعل الناقدين لاستعمال هذه الطريقة في البحوث العلمية ، يبررون سبب نقدهم لها بما يلي : 1 – تعذر ملاحظة الحادثة التي وقعت في الزمن الماضي . 2 – صعوبة ، أو انعدام الموضوعية في التطرق للسبب الحقيقي لوقوع الحادثة التاريخية ، نتيجة لما تفرضه عليه قيم وتقاليد العصر الذي عايش فيه الحادثة . 3 – استحالة إجراء التجارب

---

***- ألف بن خلدون كتابا في التاريخ أسماه :" كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاشرهم من ذوي السلطان الأكبر "** ، ومهد لهذا الكتاب الضخم بمقدمة طويلة جعل لها عنوانا " في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها " .

1 – من مقدمة ابن خلدون ، باختصار وبتصرف .

على الحوادث الماضية مما يجعل الوصول إلى اكتشاف القوانين من الأمور الصعبة . 4 – لا يستطيع المؤرخ تفسير ومعرفة سبب حدوث الحادثة التاريخية تفسيرا علميا مما يجعل الباحث الذي يستعمل هذا المنهج ، في الوقت الحاضر، يبذل مجهودا كبيرا في استخدامه لمبدأ الشك والتمحيص الذي دعا إليه بن خلدون أو الشك المنهجي الذي استعمله روني ديكارت ( 1596- 1650 )* .5 – يستعمل المؤرخون الأساليب الفنية والأدبية والتحليل الفلسفي العقائدي الذاتي ، فهم كأصحاب فن الرسم الذين يخلقون بالريشة صورا بعيدة عن الواقع ، لذلك فإن الباحث في العلوم الاجتماعية ، ولكي يصل إلى نتائج علمية ، ملزم بأن يجعل من سجلات التاريخ مخبرا يبحث فيه عن التكرارات التي تشترك في حادثة تاريخية معينة ليجعل منها أسبابا حقيقية ومعقولة يمكن أن تكون قوانين عامة تساعد على التنبؤ بما هو آت ، ويمكن تجنبه إن كان سلبيا أو العمل على تحقيقه إن كان إيجابيا . لاحظوا أن الدول الأوروبية صارت تتجنب التصادم فيما بينها واللجوء إلى الحوار والاتفاقيات الودية بعدما حدث لها من ويلات وخسائر في جميع الميادين ،عقب الحرب العالمية الثانية ، ويمكن تعميم هذا المثال على مختلف المواضيع التي يبحث فيها المتخصص في العلوم الاجتماعية ، بتطبيق المناهج المناسبة لبحثه بما فيها المنهج التاريخي . فالتاريخ مدرسة تتعلم فيها الأجيال الحالية العبرة ممن سبقوهم لتجنب الأخطاء مرة أخرى ولأن التاريخ لا يعيد نفسه ; وأن المنهجية الصحيحة ، أي التي توصل الباحث إلى اكتشاف الحقيقة التي تؤدي به إلى إيجاد حل للمشكلة التي دفعته لجعلها موضعا للدراسة التي سيقوم بها ، تتطلب جهدا أقوى ، مثل جهد صاحب المشروع ، الذي يجتهد أكثر في عملية التحضير والتخطيط ، لأن الانجاز بعد ذلك سيكون أسهل ، وفي هذا المعنى يقول **برغسون** :

" قبل أن نبحث عن الحل ، يلزمنا أن نعرف كيف نبحث عنه ؟ دقق في جهاز تفكيرك ، واستقص معرفتك ، **وانتقد انتقادك** ، وحينما تتحقق من صلاح الأداة ، أبصر ، حين إذن كيف تستعملها " (1) تكلمنا عن الاستفادة من التكرارات التي هي أساس التجريب المخبري ( وسوف نفصل فيه لما ندرس منهجا آخر ، كثير الاستعمال في مختلف العلوم ، وهو **المنهج الإحصائي )**.

---

***-** لمن يريد أن يعرف أكثر عن ديكارت ، قراءة كتابا عنوانه : ديكارت والعقلانية ، تأليف جنفياف روديس لويس ( ترجمة عبده الحلو ) ، منشورات عويدات : بيروت وباريس . ط 3 ، 1982 . أو أي كتاب آخر عن هذا العالم والفيلسوف .

1 - **برغسون** ، مرجع سابق .